السادات أديبًا

نحن في عصر القصة من غير شك.. فان أية فكرة أو أي مبدأ أصبح من السهل جدا إذا أردت أن تضمن له الذيوع والانتشار بين الناس، بل أكثر من ذلك إذا أردت له مؤمنين يصلون إلى حد التعصب .. فما عليك إلا أن تصوغ قصة تطعمها في حوارها وحوادثها وانفعالاتها بما يريد أن تقرره من مبادئ وأنت واثق أنها ستدخل إلى القلوب من غير عائق أو صعوبة.

القصة في حياة أنور السادات

لقد كان أنور السادات يعرف أن القصة أصبحت تؤدي دورًا أساسيًا في نشر مبادئ معينة أكثر مما يمكن أن يحققه المقال أو أي فن آخر من فنون الكتابة، ويشير السادات إلى هذا المعنى على وجه التحديد قائلا: **"نحن في عصر القصة من غير شك.. فإن أية فكرة أو أي مبدأ أصبح من السهل جدًا إذا أردت أن تضمن له الذيوع والانتشار بين الناس، بل أكثر من ذلك إذا أردت له مؤمنين يصلون إلى حد التعصب.. فما عليك إلا أن تصوغ قصة تطعمها في حوارها وحوادثها وانفعالاتها بما يريد أن تقرره من مبادئ وأنت واثق أنها ستدخل إلى القلوب من غير عائق أو صعوبة، فالحقيقة الثابتة اليوم أن الناس قد خف إقبالهم على قراءة الكتب العلمية وأصبح لا يقبل عليها إلا النفر القليل من الذين يشتغلون بالبحوث، وأصبح الكافة يجدون متعتهم في قراءة القصص والاستمتاع بها بشغف شديد. ولقد تنبه العالم إلى هذه الحقيقة فأصبحت تقرأ مبادئ الشيوعية مثلا في روايات تقع حوادثها بين العمال، وكيف أنهم في حوادث وانفعالات متتالية أصبحوا ملوكًا بعد أن كانوا عبيدًا.. وفي الغرب حين يكتبون عن الرأسمالية تراهم يصورون لك كيف بدأ البطل فلاحًا أو عاملا بسيطًا، ثم لا يلبس بعد حلقات متتابعة من الحوادث المثيرة والكفاح الرائع أن يصبح مالكًا للمزارع الشاسعة إن كان فلاحًا أو**

صاحبًا لأكبر مصانع العالم في إنتاج كذا أو كيت من المواد والمصنوعات إن كان صانعا"[1]

وقد مارس السادات كتابة الرواية والقصة بنفسه، إذ يقول في مجلة التحرير في أول مارس ١٩٥٤:

"إن هوايتي الخاصة هي في القراءة والكتابة، وقبل الثورة كان لدي المتسع من الوقت فكتبت رواية وبدأت في الثانية، أما اليوم فإنني لا أكاد أستطيع بواجبي الصحفي إلى جانب الواجبات الأخرى، ولم أستطع وإلى اليوم منذ قيام الثورة أن أجد فراغًا لشيء آخر"[2].

فلا شك أن القصة كان لها أثر عميق في تكوين أنور السادات، وفي ذلك يقول على صفحات مجلة أهل الفن ٢٦ إبريل ١٩٥٤:

منذ فجر حياتي وأنا طفل في القرية وللقصة أثر عميق في خيالي وفي وجداني.. ففي تلك الأيام الخوالي، أيام كنت طفلا لا أرى الحياة إلا في القرية إلا نعيمًا مقيمًا... كنت لا أنام إلا على تلك القصة المشهورة تحكيها لي جدتي عن الشاطر حسن والشاطر محمد، وذلك الغليون المحمل بالجواهر من أجل أن يحظى أحدهما ببنت السلطان بنت الحسن والجمال، وتتنوع هذه القصص، فتتطور أحاديث البطولة في قصص أبو زيد الهلالي التي كان يرويها لنا شاعر الربابة في المواسم والأعياد، والتي كانت تلهب حماسنا طوال السنة فلا نتحدث إلا عن (أبو زيد) ودياب، حتى إننا كنا في لعبهم نتمثل بهم، وندير المعارك ونحن أطفال بعد أن نقسم أنفسنا إلى فريقين... هذا فريق أبو زيد وهذا فريق دياب.

[1] جريدة الجمهورية: ١١ أكتوبر ١٩٥٤ – خواطر بعنوان «في الأسبوع مرة».
[2] مجلة التحرير: ١ مارس ١٩٥٤

وتدرجت في مراحل الطفولة، وجاء الوقت الذي تركت فيه القرية لكي أبدأ أولى مراحل التعليم في القاهرة، ولكني كنت أعود مع الإجازة الصيفية إلى القرية لأقضي بها شهورًا، كانت بلاشك غذاء لخيالي الذي ارتبط بتلك العيشة البدائية الملهمة وما فيها من قصص وأساطير حالمة كانت لا تفتأ تبعث النشوة في خيالي الساذج طوال السنة الدراسية في القاهرة.

ولم يكن يغريني في القاهرة إلا يوم الخميس من كل أسبوع، ذلك اليوم الذي كنت أعد له الخمسة مليمات لكي أشتري "مجلة الأولاد"، فقد كان البطلان "دان ودورا" يرويان قصة شائقة على صفحات هذه المجلة تنتهي فصولها دائمًا نهاية مفاجئة مثيرة تحتم عليَّ أن أتابع مصيرهما الشيق المجهول، ثم كان الصبا وأذكر أنني في إجازة من الإجازات الدراسية لم أستطع أن أسافر إلى القرية، وكان هذا في حد ذاته امرًا لا يمكن أن أتصوره، أو أن أحتمله، لولا حزمة ضخمة من روايات الجيب ملأت عليَّ الفراغ، وأنسى ذلك الحلم العجيب... قريتي الوادعة... ثم سرت في قافلة الزمن فأتممت تعليمي وانتظمت في سلك الجيش، وشاءت المقادير أن لا أعيش طويلا هادئ البال فطردت من الجيش واعتقلت ثم هربت.. وكنت أكافح من أجل الخير وأنا هارب، ثم اتهمت..

وكان السجن..

وفي السنة الأولى في الزنزانة قاسيت إلى جانب ما قاسيت حرمان القراءة والثقافة. فما أن صرحت لنا إدارة السجن بعد هذه الشهور بالقراءة والاطلاع، حتى شعرت بنهم شديد لأن أقرأ في أي لون من ألوان الثقافة، بل إن منظر الكتاب في حد ذاته كان شيئًا جديدًا مبهجًا، فما بالك واليوم طويل ولا حياة للإنسان في مثل هذا المكان إلا في كبت وحرمان لن يبددهما إلا الكتاب...

ومرة أخرى عدت بالتدريج إلى قراءة القصص، ولكن قراءتي في هذه المرة لم تكن كسابقتها في "دان ودورا" أو في "أرسين لوبين"[1] وإنما بدأت بوحي من القيد الذي يحيط بي، أقول: بدأت أعيش فعلا في القصة التي أقرأها وبدأت أحس بلون هادئ عميق من المتعة، فقد كنت أحس بلون هادئ عميق من المتعة، فقد كنت أنسى بين صفحات القصص ما يحيط بي، بل أنتقل بخيالي إلى الأجواء التي تصورها حوادث هذه القصص فكنت أنفعل انفعالا حقيقيًا، فأطرب للبطولة والشهامة، وأستنكر المكر والخيانة، وكأنني فعلا أحادث الأشخاص، وأشترك فيما تصوره تلك القصص من مجتمعات...

وبدأت أدرك إدراكًا جديدًا، وأحس إحساسًا جديدًا بكل ما أقرأ.. إلى أن كانت تلك الفترة التي تألبت على نفسي فيها الهواجس، وكان قد مضى عليَّ سنة ونصف السنة في ذلك المكان الموحش..

وبدا لي فعلا أنني في حاجة إلى أن أعرف من أنا.. وكيف أعيش.. وكيف أحتمل؟

وبدأت أسأل نفسي.. أنا لم أرد في هذا الكون شرًا، فكيف يعصف بي الأشرار؟ وعشرات من الأسئلة كنت أحس أنها تنفجر من قلبي وعقلي ووجداني في صراخ:

إلى أين...؟

وكأنما استجاب ربي لهذا الدعاء، ففتح عليَّ السجان باب الزنزانة ذات يوم لكي يسلمني "الغسيل" الذي أتى من منزلي بعد تفتيشه، ثم سلمني معه كتابًا هو القصة التي في حياتي..

[1] أرسين لوبين شخصية ظريفة ابتكرها الكاتب الفرنسي موريس لوبلان وقد لاقت إقبال عظيما على كتبها من قبل القراء وخاصة المهتمين بدراسة الجريمة.. والبطل (أرسين لوبين) يتميز بالنبل والشرف والشهامة فهو لا يهدف من وراء مغامراته إلى الثراء أو كسب المال والانتقام من خصومه إنما يكرس حياته للكشف عن الجريمة وتعقب الجناة وتقديمهم للعدالة.

وسأحاول في هذه السطور القليلة أن أروي ما علق بذهني وانطبع على روحي من هذه القصة التي أعتبرها بحق نقطة الابتداء في حياتي، بعد ذلك التساؤل وذلك العناء...

وكاتب هذه القصة هو الكاتب العالمي "سومر موم" واسمها: "حد الموسى" Razor's Edge

لعل كثيرين قد رأوها تمثل على الشاشة، ولكن أحدًا لن يستطيع أن يحس بروعتها الحقيقة إلا حين يقرأها ليستوعب ذلك المعنى العميق الجبار الذي تصوره تلك الملحمة[1].

روى موم...

"لاري" شاب أمريكي يتيم تدرج في مراحل التعليم، حتى كانت الحرب، وكان يحس من نفسه ميلا شديدًا إلى تعلم الطيران، فسافر إلى كندا، حيث أمكنه أن يلتحق بتوصية في سلاح الطيران الكندي. وما أن أتم تمرينه حتى أرسل مع زملائه إلى الميدان، حيث حارب بشجاعة نادرة، ولكنه حين عاد إلى وطنه بعد ذلك.. عاد شخصًا آخر..

لقد هال "إليزابيل" خطيبته هذا التغير المريب الذي انتابه بعد رجوعه من الحرب. وإيزابيل تحبه من كل نفسها، ولكنها تحب أيضًا أن تراه زوجًا ككل الأزواج، وتخشى مما اعتراه ومما سيراه الناس من هذا التغير على حياتهما المستقبلة كزوجين

وتحاول "إيزابيل" أن تعرف كنه هذا الأمر فقد عاد "لاري" وهو وسنه المبكرة إذ لم يبلغ العشرين بعد، عاد وهو منطوٍ على نفسه عزوف عن مرح الشباب ولهوهم في مثل سنه..

[1] مجلة أهل الفن: ٢٦ إبريل ١٩٥٤ مقال بعنوان «في حياتي قصة».

وإيزابيل فتاه تُقبل بكل نفسها على الحياة فما بال "لاري" قد عاد من الحرب وهو لا يطيق هذه التجمعات وبعد أن كان "لاري" نجمًا من نجوم المسرح بين شباب بلده عاد لا يُرى في اجتماع أو أية مأدبة إلا جادًا ساكنًا، يكاد لا يتكلم، وإن تكلم فمنطقه مريب وغريب، وكأنما أحس هو بذلك فعاد لا يرتاد الأماكن العامة. وكره الاختلاط بالناس إلا شيئًا واحًدا أن "لاري" يمضي ساعات طويلة بلغت مرة يومًا بأكمله على كرسي في مكتبة البلدة لا يحس بأحد ولا يحس به أحد، وتقلق أم إيزابيل على مصير ابنتها مع هذا الخطيب الذي ارتابت قدرته على إسعاد ابنتها، ويحاول الجميع أن يفهموا من "لاري" سر هذا التغير، فيجيب "لاري" ببساطة أنه هو شخصيًا يحسه، ولكنه لا يستطيع له تفسيرًا حتى لنفسه.. ويضيف أنه يحس أنه يريد شيئًا لا يعرفه..

وتزداد حيرة إيزابيل وأمها وأصدقاؤه وخاصة حينما ظنوا أن العمل قد يشفي من حيرته، فيرفض هذا العمل وأي عمل آخر...

وحينما تكاشفه إيزابيل في صراحة ولطف عن هذه الحيرة ينتهي الأمر بأن يهبها حريتها؛ لأنه لن يستطيع- قبل أن يعرف ما يريد- أن يحقق لها شيئًا، فتصدم إيزابيل وتفرح الأم.. وحين كاشف "لاري" بهذا، أنبأها أيضًا أنه راحل عن أمريكا عله يستطيع بالسفر أن يهتدي إلى ما يريد، وهناك في ألمانيا اشتغل عاملا في منجم من مناجم الفحم، فكان يمضي سحابة يومه كادحًا تحت الأرض، وحين يأوي في المساء إلى غرفته لا ينام حتى يقرأ بجوع ونهم... وكان يسكن إلى جواره في نفس المنزل قسيس جمعهما الجوار في جلسات تناقشا فيها طويلا. ولكن "لاري" لم يعثر لا في الكتب ولا في المناقشة على ما يريد.. وتواعدا على أن يزور "لاري" القسيس في ديره في الألزاس عله يجد في أهل الدير ومكتبته شفاء لروحه، وتمت هذه الزيارة بعد شهور من هذا اللقاء، ولكنها كانت أيضًا بلا نتيجة..

وسافر "لاري" على أسبانيا، ولكنه فتن هذه المرة بنساء أسبانيا وشعورهن الناعمة السوداء، ولم تسفر مغامرته فيها إلا عن مصاحبة فتاة لم تلبث أن تركته لتلحق بحبيبها العائد من الجيش...

وحين ترك إسبانيا صمم هذه المرة على أن يذهب بعيدًا، فركب مركبًا سياحيًا من تلك السفن التي تطوف بركابها حول العالم.

ركب هذه السفينة وهو لا يعلم حقيقة وجهته، ولكنه فوجئ والسفينة في الإسكندرية برجل أسمر يرتدي الملابس العادية، وتنم ملامحه عن جنسيته الهندية. فوجئ "لاري" والرجل يربت على كتفه في رفق وما أن استدار حتى سأله الهندي عن وجهته فأجاب "لاري" في شرود: إنه لا يدري، فرد عليه هذا قائلا: "عليك أن تتخلف في الهند.. في الشرق تعاليم جدير بالغرب أن تأخذ منها.." ثم تركه وانصرف..

وما أن وصلت السفينة إلى بومباي حتى شعري "لاري" بحافز قوي يدفعه إلى التخلف في الهند، وخاصة بعد أن رأى موكبًا جديدًا من مواكب البشرية في شوارع بومباي، فتخلف..

والتقى "لاري" برفيق السفر الهندي الذي اتضح أنه من البراهمة، فدعاه هذا للسفر معه إلى "باريس"، وسافر الاثنان، وهناك بدأت أول تجربة أخذت على فتانا لبه حينما كان يخرج إلى نهر "الجانج" في الفجر ليرى جموع الهنود وهم يتطهرون في ماء ذلك النهر المقدس في إيمان وصدق.. في إخلاص عميق أذهل "لاري".. أيما ذهول..

وفي المعبد الكبير في "مادورا" وقف "لاري" يجيل النظر في كل شيء، وما شعر إلا ويد رقيقة تلمسه، فلما نظر رأى إلى بجانبه أحد أولئك المتعبدين الهنود الذي توجه إليه بالحديث قائلا:

اذهب إلى "سيري جانيشا"في "ترافكتور" فستجد عنده ما تريد. لقد شغل الشرق بعمقه وفلسفته تنفس فتانا.. وكان يحس في كل خطوة يتقدمها وهو يتجول في الهند أنه قريب مما يريد...

خرج فتانا من المعبد يسعى إلى "ترافكتور"، وأشد ما كانت دهشته حينما وصل إلى محلة شيري جانيشا، وحين أدخلوه عليه أخذته رهبة تحمل في ثناياها إحساسًا جارفًا بالسلام والصفاء والجمال تشع كلها من ذلك الرجل الجالس على حصير أروع من كل العروش...

وكانت المفاجأة الكبرى حينما بادر "جانيشا" فتانا قائلا: "كنت في انتظارك" وسكت..

وأفاق فتانا من دهشته قائلا:

"لقد أتيت إليك لأنني أبحث عن حقيقة منذ ثلاث سنوات أحس هذه اللحظة أنها لديك.."

وكان رد "جانيشا" غيبوبة طويلة أفاق منها على ابتسامة كانت أعذب من كل تعبير...

ويمضي فتانا شهورًا طويلة في محلة جانيشا قرأ فيها بنهم وتعلم التأمل.. فبدأ يسبح فيما حواليه، وحين كان يجلس إلى "جانيشا" مع بقيه المدرسين والتلاميذ كان خياله.

حار يلهب تأملاته..

كان جانيشا يبشر

السيطرة على النفس

وعلى الحواس وأنهم

ينعموا بالتحرر إذا ما سادهم[1]

وقوة النفس وإنكار الذات، عن طريق صفاء الذهن والرغبة في الحرية..

وكان يردد دائمًا: "إن القوة يجب أن تستقر في أرواحكم لتعيشوا في سلام دائم مع أنفسكم".

"إننا نجهل كثيرًا قدر وجودنا، فنحن أعظم بكثير مما نحس، وهذه الحقيقة وحدها كفيلة بأن تقودنا إلى الحرية". ثم يعود فيؤكد في لهجته الهادئة الواثقة: "ليس معنى التجرد أن ينعزل المرء عن العالم، وإنما التجرد الحقيقي هو في قهر النفس والسيطرة عليها.. ويعود فتانا فيسرح ويتأمل ويقرأ ثم يسمع إلى جانيشا وهو يقول: إن العمل الذي يؤدى من غير مصلحة ذاتية لهو خير متعة للذهن، وأن الأمانة التي تُلقى على كاهل الإنسان فوق هذه الأرض هي خير فرصة يستطيع بها أن يقهر فرديته في سبيل السمو بالمجموع، وإلى هنا امتلأت نفس فتانا، فأحس بالجمال وأحس بالصفاء وأحس بالسلام وبدأت المعرفة..

فلم يعد فتانا ينخلع حينما يذكر منظر زميله الطيار الذي رآه يحترق ويشوه وهو يدفع عن "لاري" هجمة طائرة معادية..

وعرف أن كل شيء في هذه الحياة إلى زوال، وأنه من الخطأ أن نتمسك بدوام الحال، ومن الخطأ الفاحش أيضًا أن نضيع فرصة الاستمتاع بما يقسم لنا فيها من جمال..

وبدأت طاقة مروعة تنفجر في نفس فتانا..

---

[1] هذا الجزء من القصة غير واضح.

إنه لن يقنع إلا بأن يعيش... وأن يعيش حتى يستطيع أن يحقق رسالته في هذا الوجود..

إنه يحس أن نفسه قد ارتفعت فوق الزمان والمكان والأشياء.. وأن الحياة ما هي إلا حلبة يتصارع فيها الفرح والألم، والفضيلة والرذيلة، والحكمة والجهل، والخير والشر...

وأن الحقيقة العليا في هذه الحياة هي أن يستطيع الإنسان أن يحقق التوازن بين ما يشتهيه الجسد وما يصون الروح.

وعاد فتانا إلى وطنه ليعيش هادئ البال... مشرق الوجدان... بعد أن انتصر على نفسه وعلى الدنيا بالمعرفة والصفاء، والجمال والسلام...

صوت الضمير

قصة للأديب الألماني : ف. فون لمبورج

تعريب وتلخيص : أنور السادات

قصة صوت الضمير نشرت على صفحات الهلال ١٩٤٨، وأعيد نشرها مرة أخرى على صفحات المصور ١٩٧٢، وكتب المصور في تقديمها للقصة: **"هذه قصة قديمة من أرشيف الأدب في دار الهلال! كتبها الرئيس أنور السادات بخط يده مترجمة عن الإنجليزية للكاتب الألماني فون لمبورج عام ١٩٤٨! أيامها كان لليوزباشي أنور السادات كفاحه من أجل مصر... ونشاطه الأدبي.. حبًا منه للثقافة والفكر وعشقًا للكلمة، وكان يخص المصور بإنتاجه من مقالات وخواطر وتراجم.. ونحن ننشرها في عيد الثورة العشرين تحية للثائر والأديب الذي أصبح رئيسًا للجمهورية!**

تسللت خيوط الشمس الذهبية من خلف الجبال لتهبط في جلال وإشراق على تلك القرية الألمانية الوادعة معلنة طلوع يوم جديد، وكان إشراق الشمس في هذا المكان نادرًا، لذلك لم يلبث السكان أن خرجوا في مواكب هادئة: هذا إلى عمله وذالك إلى مصلحة يقضيها، وكان الكل مبتهجًا منتعشًا، فقد امتزج نسيم البكور الندي بنور الشمس الدافئ.

وفي ركن من أركان القرية، خرج الحداد العجوز من منزله ليستقبل يومه في أمل ونشاط، فما زال السكان يعتبرونه "تعويذة"، يتبرّكون بالحديث إليه عن سالف الأهل والأزمان، ويلجئون إليه طلبًا للنصيحة والمشورة، فقد اشتهر هذا العجوز بطيبة القلب، وحسن المعاملة، فأحبه الجميع.. وأحبهم.

خرج الحداد من داره رافعًا رأسه إلى السماء، وما أن امتلأ صدره برائحة النهار حتى اعتدل ليتجه إلى دكانه الذي عاش فيه وثابر حتى جمع ثروة طيبة كانت خير عون له على أعمال البر والخير، وما أن اتجه إلى الطريق حتى وجد بالقرب من بابه طفلا تكسو جسمه أسمال بالية ينادي أمه في أنين مكتوم.. إنه لابد واحد من أولئك الذين قست عليهم الأيام، فحرموا عطف الأهل، وجو الأسرة الرفيق.

وذاب قلب الحداد في صدره شفقة على هذا البريء المسكين، فالتقطه، وحاول أن يسأله عن حكايته، فلم ينطق الطفل إلا بكلمتين: إحداهما كانت نداء لأمه، والأخرى هي اسمه.. فحمله الرجل إلى الداخل حيث ألقاه في حجر زوجته هاتفًا:

أبشري يا عزيزتي.. ها هو رزق البكور.. وجدته بجانب الباب فلنضيفه إلى القائمة..

– آه، لك يا عجوزي الطيب.. أما يكفيك ابنك وبنت أخيك المتوفى.. فتريد أن تجيش لي جيشًا من الأطفال.. أما تدري ما يتطلبه تعليمهم وتنشئتهم؟

– تبًا للدهر حين يقسو.. ألا يبهجك يا عزيزتي أن نوقد الدفء والنور في القلوب البريئة الطاهرة؟

– يبهجني أن تخرج الآن إلى عملك، فتعداد العائلة بفضل بلاهتك في تضخم.

– لا تقلقي.. فسأعلم ابني وهذا الربيب مهنتي طالما يشبان.. وسيكونان رجلين يضيئان شيخوختنا.. وعليكِ أنتِ أن تتولي أمر الفتاة.. والله يرعانا جميعًا..

خرج الحداد إلى دكانه، بينما أنساب الأطفال الثلاثة في فناء الدار يلهون، ويلعبون، إنهما فارسان وفتاة.

وبتعاقب الليل والنهار، ويشب الأطفال الثلاثة إلى مرحلة الحداثة فينصرف الولدان إلى الدكان لتعلم حرفة الأب، وراحت البنت تعمل تحت إشراف الأم في إدارة شئون البيت.

لم يكن جمع العائلة يكتمل إلا على مائدة العشاء، وكان الناظر إلى الوالدين يلمح سرًا كبيرًا يعتمل في صدر كل منهما كما يلمح أيضًا حرصًا على إخفاء هذا السر بحيث لم يشعر أحد من أفراد الأسرة بما يدور في مكنون أحدهما، فالربيبة اليافعة كانت قد نمت وتفتحت في إشراق كأزهار الربيع، والفتيان في هذه السن عبيد العاطفة.. لا تحكمهم عقولهم بقدر ما تحكمهم عواطفهم.

وفي يوم من أيام يناير الباردة جلس الولدان إلى الحداد العجوز يطلبان منه أن يأذن لهما في الخروج إلى الحياة مكافحين.

- ولكن يعز عليَّ وأنا في هذه السن أن تتركاني أسير وحدي في موكب الحياة.

- إنك تعلم أن في السفر خبرة وتجربة، قلما تتاح لمن يعيش في محيط ضيق، وكلما ازددنا علمًا زاد إيماننا.. فاسمح لنا لنعد إليك ظافرين..

- إنني مع حزني لفراقكما لا أرى إلا رأيكما.. فاحذرا في سفركما رفيق السوء.. واكبحا النفس فإنها أمَّارة بالسوء.. والله يبارك ترحالكما.

وفي الطريق اتفقا على أن يلتقيا بعد ثلاث سنوات في حانة تقع على الطريق العام بعيدًا عن القرية ليدخلوا سويًا.. وانصرف كل إلى سبيله يحمل سره في قلبه، ويطوي نفسه على آمال.

وفي القرية، جلس الحداد العجوز يتلقى رسائلهما في شوق ونشوة.. ولم يبخل عليهما يومًا بنصيحة أو توجيه وظل أبدًا يرقب يوم العودة.

وطوى الزمن ثلاث سنوات كاملة من دورته، واستقبلت الحانة ولديها الذين جلسا يقصان أخبارهما.. قال الربيب:

سافرت وتنقلت، وما أعذب الترحال.. كيف أقضي النهار كاملا كادحًا، وما يجن الليل حتى أجدد النفس حسبما يوحي المكان، ففي القرى الصغيرة كنت أملّ الليل في تلك الحانات الرطبة الضيفة، ولما سكنت المدن الكبيرة رأيت الليل بوجهه الحقيقي.. هناك في بيوت اللهو يرى الإنسان متعة الدنيا ونعيم الحياة.. وصدقني يا أخي ما أسخف العمر إذا لم يرتشف الإنسان رحيق اللذات.

وقال ابن الحداد:

– والله يا أخي، إن في السفر والتنقل متعة ولذة. لقد كنت أستقبل يومي مع الشمس هاتفًا في مرح: "ها هو يوم جديد".. وكنت أراه جديدًا في كل شيء.. كم رقص قلبي طربًا للطبيعة في حبورها وتنوعها، وكم استعذبت حديث الناس ولهجاتهم في مختلف البقاع.. لقد رأيت في كل مكان شيئًا فيه آية جديدة على قوة الخالق وقدرته، وحين امتلأت نفسي بالروعة والإيمان،

تعلمت الحب.. الحب الحقيقي. حب الله، وحب الناس، وحب كل شيء.

وسبح ابن الحداد في سرحة طويلة عكست على وجهه بِشرًا وبهجة، فسأله الربيب في برم وملل:

- ألم يكتب إليك العجوز حديثًا ؟

فأجاب الفتى وعلى وجهه بريق من الفوز والسعادة:

- نعم، لقد كتب إليَّ خطابًا شهيًا إلى نفسي، وحبيبًا إلى روحي.. أتدري ما هو؟.. لقد وعدني بأختنا الربيبة زوجة لي.. ووعدني أيضًا بأن يتنازل لي عن تجارته ومكانه.

وقع الخبر على فتانا الربيب وقع الصاعقة.. وألهبت شياطين الغيرة في قلبه نارًا متأججة من الحقد والكراهية، ووسوست له نفسه بكيد عظيم.. ولكنه كتم أمره.. وقاما ليقفلا إلى قريتهما راجعين.

وفي الطريق، وبقرب التلال التي تشرف على طريق "زيتاور" الكبير.. يهمس الشيطان في أذن الربيب بغوايته، وتنطلق أفاعي الحقد تنفث سمها في دمه وتغطي عينيه بغشاوة حرقة مهلكة.. الربيبة.. الثروة.

ويستبد الشر بنفسه الخبيثة، فينهال على رفيقه بعصاه.. ولا يفيق من ثورته الجنونية إلا وضحيته جثة هامدة.

تمت هذه الفِعلة الشائنة في جُنح الليل البهيم، وحين رأى الربيب ضحيته وقد تحول إلى كومة من اللحم، تفاعلت في نفسه الدنيئة عوامل الحرص على الحياة، فأسرع إلى أقرب حفرة ووارى

الجثة في إتقان مخفيًا بذلك معالم جريمته، وكانت الساعة عندئذ تدق معلنة الثانية عشرة.

وفي اليوم التالي.. أصبح عليه الصباح وهو يدخل القرية.. واتجه إلى المنزل في هدوء وسكون كأن لم يحدث أمس أمر في الظلام.. وأقبل عليه الحداد العجوز في شوق ولهفة يقبله وهو يبكى فرحًا:

- أهلا بالابن الكريم في وطنه وبين أهله.. كيف حال أخيك؟

وانهالت عليه القبلات والأسئلة في سيل لا ينقطع. وأخذ في سرور مفتعل، يروي أخبار رحلته.. أما الابن الغائب فقد زعم أنه لا يعرف عنه شيئًا!

وانتظر الحداد سنة كاملة دون أن تصله أخبار من ذلك الابن الغائب.. عندئذٍ تبدد أمله في أنه لا يزال على قيد الحياة.

وأقيم مأتم الغائب.

ولما هد الحزن كيان الحداد العجوز وأراد أن يستريح دعا فتانا الربيب فتنازل له عن تجارته، وزوجه من الربيبة الشابة.

ومرت على زمن الحادث ثلاثون سنة.

وصار القاتل رحلا، وراح يزاول عمله في مثابرة وجد، ويرتع في منزله في بحبوحة من العيش وهناء مع زوجته.

وفي يوم من أيام الشتاء الباردة كان الثلج يتساقط في مشهد جميل، بينما النجوم تسطع في سماء ديسمبر القاتمة، فكر في أن يذهب إلى القداس في الكنيسة القريبة، وفي الطريق بدأت ساعة المدينة تدق معلنة الوقت.. وأنصت الربيب.. كم مرة تدق.. اثنتي عشرة مرة.. إنه لابد منتصف الليل.

لا.. لابد وأن هناك خطأ في شيء.. بالله ما هذه الأطياف.

وعاد يجري مسرعًا إلى منزله وكأنه قد أصابه مس من الشيطان، إن أشباح جريمته التي ارتكبها قبل ثلاثين سنة وفي نفس هذه الساعة.. الثانية عشرة.. تطارده وتلاحقه.

وفي أنين مكتوم.. وسيل غزير من العرق.. استلقى القاتل القديم على سريره، واستيقظ في صباح اليوم التالي على مشهد زاد من فزعه.. فقد وجد بوليس الحاكم يحاصر منزله.. ودق الباب دقات مفزعة.. وفي لهجة حازمة، سمع من يقول:

- هل السيد هنا ؟

دار رأس السيد في عنف، وأجاب في ذهول:

- نعم.. ولكنني لم أقتل..لم أقتل.. آه.. لا..

ودخل رجال الشرطة، وألقوا القبض على السيد الربيب وقادوه إلى سراي الحاكم.

وفي غرفة الحبس استبد الهلع بنفس الرجل، وامتلأت الحجرة ثانية بأطياف جريمته التي ظن أنها قد دفنت، بعد أن انقضى على وقوعها جيل طويل.. وتملأ الرهبة نفس القاتل فيفلت منه الزمام، ويصرخ في جنون وهو يقرع الباب:

- افتحوا.. أريد أن أعترف.. قتلته.. الربيبة. الثروة.. وظل يقرع الباب وهو يهذي بهذه الكلمات، حتى فتح الباب.. واقتاده الحراس إلى مجلس الحاكم..

وقبل أن يوجه إليه الحاكم تهمة السرقة التي قُبض عليه من أجلها نتيجة لغلطة الاشتباه في آثار أقدامه التي وجدت على الثلج مفضية من الكنسية إلى منزله، اندفع يروي في انفعال مثير تفاصيل جريمة القتل التي لم يقبض عليه بسببها، ولم يسأله أحد عنها!!

وكان الجزاء وارتاح الضمير.

وفي أبريل ١٩٥٤ نشرت له على صفحات مجلة أهل الفن قصة بعنوان «ليلة خسرها الشيطان» جاء على صفحاتها:

أخذ قرص الشمس يهبط رويدًا رويدًا، فتناثرت من تحته ظلال رمادية راحت تغمر قرية "العابدية" معلنة غروبًا جديدًا..

وهذه سُنَّة الله.. فلابد أن يسير الكون ما بين شروق وغروب، ونور وظلام نحو النهاية التي أرادها له خالقه القادر القوي الرحمن..

وموكب الغروب في القرية مهرجان رائع يتكرر كل يوم، فبينما تزدحم الطرق الزراعية بجموع العائدين من كفاح اليوم الطويل في الأرض الطيبة رجالا وعددًا وماشية وأنعامًا.. نرى القرية وقد اكتسحت بدخان داكن يتعالى هدوء إلى السماء، فوجبة الطعام الرئيسية لابد أن تكون في استقبال الرواد العائدين، شهية بقدر ما عانوا وبقدر ما يسمح به دخل البيت ومهارة سيدته شريكة الكفاح..

وحالما ينتهي الزحام على الطرقات يبدأ زحام من لون جديد على المساقي والطلمبات، فإن أحدًا من هؤلاء الرواد لن يأوي إلى عشه من غير أن يطمئن إلى سقاية ماشيته وأنعامه..

وفي هذا اليوم وقف "خضر" من خلف سور ذلك القصر الأنيق يرقب كعادته موكب السقاية من ذلك الحوض الكبير الذي أقامته سيدته صاحبة الأرض والجاه والثراء، وريثة ذلك القصر، وربة ذلك الحسن الذي يصرخ من ضحكاتها الحلوة العابثة فتنة والتهابًا.

إن "خضرًا" اليوم في دوامة تأخذ عليه عقله وقلبه وحسه وكل حياته.. فهو يذكر أول يوم عندما نزح إلى القرية لكي يعمل من الإجراء من عمال الأرض فانتقته "نورا" من بين عشرات النازحين، واختارته لكي يشرف على حديقتها الخاصة الملحقة بالقصر بأجر مغرٍ قدره خمسة جنيهات كاملة.

وهو يذكر أيضًا أنها لم تسأله عن سابق علمه بالعمل في الحدائق، وإنما سألته عن نفسه وسماته التي وصفتها بأنها تدل على النبل، وعن قوامه الذي أعجبها أيما إعجاب وعن.. وعن.. ولما أن ارتدت عيناه خجلا واحمر وجهه، وأراد أن يجيب لم يجد إلا تمتمة وهمهمة ردت عليها "نورا" بتلك الضحكة الحلوة العابثة وهي تربت على كتفيه وكأنها سعدت بذلك الخجل وتلك التمتمة..

وهو يذكر أيضًا أنها لم تكتفِ بذلك، وإنما أخذته من يده وقادته إلى الحجرة المخصصة له في طرف الحديقة، وأرشدته إلى ما فيها من امتيازات لم يألفها، بل ولم تداعب خياله قط، وهو الذي لم يعرف إلا تلك الدار المتواضعة التي نزح عنها.. وكأنما أرادت أن تذهب إلى ما بقي بلبه من رشاد، فأمرت الخدم بإعادة تنظيفها وترتيبها من جديد..

"علشانك يا خضر"

لقد أمعنت "نورا" في العبث بفطرة ذلك الفتى الساذج إلى حد أن أذهلته عن أمسه وحاضره وكيانه في مستقبل الأيام، إنه ليسأل نفسه وهو يقبض بيديه على حديد السور يركب موكب السقاية ألف سؤال وسؤال.. لماذا تناديه "نورا" في مناسبة وغير مناسبة لتروي له طرفًا من حياتها في المدينة، وكيف أن الكثيرين من أهل الثراء يترددون إليها طامعين في مالها وجمالها وفي مجالسها، وكيف أنها تضن بقلبها أن يعبث به الطامعون، وأنها لن تسلم قلبها وأموالها إلا لمن تشعر أنه يريدها لشخصها حتى ولو كان أحد عمال أرضها الأجراء..

وذلك الذي حدث يوم أن كان يقلِّم أشجار الورد في الحديقة، ولم يكن له بهذا الفن سابق علم، فكان أن نفذت شوكة طويلة في راحة يده، وتصادف أن "نورا" كانت تمر بالقرب منه فهالها أن ترى الدماء تنزف منه وأخذته مسرعة إلى جناحها الخاص حيث أجرت له الضمادات وكانت ذراعه عارية إلا من قميص مهلهل فأخذت "نورا" بعد أن أسعفته تمسح بيديها على عضلاته وفي عينيها بريق عجيب لم يكن ليراه ظليلة حياته، فقد عودته النسوة في القرية ألا يرى بريق عيونهن من فرط الخجل أو من فرط استحيائهن.

لقد لمست بيديها بلطف أول الأمر، ثم بعنف وهي تقترب منه لتغسل له الجرح، فأدمت طهارته وروحه بتلك الأنفاس الحارة التي انبعثت منها مختلطة بذلك العطر القوي الذي شل من فتانا كل حراك، وعندما قام لينصرف وهو يشكر لها صنيعها في كلمات لاهثة متقطعة ويقبِّل يدها إلى أن همست في أذنه بصوت حالم انطبع بعنف على وجدان البري:"انتظرني يوم الخميس الجاي يا خضر.. سأرجع من مصر علشانك مخصوص".

هل كان وهمه يطلب صراحة أكثر من هذا؟ وهل كان شيطان الشك يريد منها وعدًا أفضل من هذا؟ لا لم يعد هنا وهم ولا شك، وإنما هو يقين يهز كيانه بأقوى مما يفعل الشك.

لقد عاش يومين بعد هذا اللقاء محمومًا مخدرًا في حلم اشتهى ألا يفيق منه.. كان يذكر اللقاء ليسترجعه وليردد قولها كلمة كلمة.. إن نبرات صوتها لا تزال تعيش في أذنيه واضحة شجية تطارده، وهو ينام وتونسه وهو يعمل في خدمة حديقتها التي لم ينقض عليه فيما بعد شهر بعد.

أيه أيتها المشاعر البشرية، بل أيتها العواطف الإنسانية.. لقد كان فكره في أيامه الأولى يدور حول الجنيهات الخمسة التي طالما منَّى نفسه بأنه سيتناولها متماسكة في ورقة واحدة كان يراها في أيدي تجار القطن، وكانت أنامله تأكله ليلمس عليها ويرفعها في احترام إلى شفتيه ليقبلها في لهف..كم من ساعات انصرمت عليه وهو يحرك هذه الأنامل وكأنما تمر على صفحة تلك الورقة العريضة التي شاعت فيها الحمرة كما تشيع في وجنتي سيدته العريضة الباسمة دائمًا.

كان فكره يدور حول الجنيهات الخمسة في سذاجة وبراءة، ولكنه أصبح اليوم ولا هم له أو لفكره ولا لخياله سوى سيدته نفسها.. سيدته وسيدته في إلحاح.. إن هواتف نفسه تتصارع بين رغبة جامحة طارئة وبين ما نشأت عليه فطرته الساذجة من اعتراف بالجميل، ولكنها سيدته أيضًا إنها هي التي شجعته فتشجعت غرائزه، وهي التي كشفت بعطرها وأنفاسها عما كان يكتبه.. إن "خضرا" يعاني صراعًا لم يكن في حسبانه بين ما حرم الله في كتابه وما أيقظته فيه سيدته من هواتف..

ظل "خضر" في موقفه هذا على السور تائهًا شاردًا، ولم يحس أن القوم قد انصرفوا بأنعامهم عن الحوض الكبير، وأن الليل قد زحف على القرية، ولم يدرِ إلا والرجفة تأخذه.. إن اليوم هو الخميس الذي واعدته عليه سيدته، فلابد أن يذهب ليعد نفسه للقاها..

وفي خطوات وئيدة توجه "خضر" إلى طرف الحديقة حيث يوجد مسكنه، وما أن فتح غرفته حتى وقف كالمصعوق لقد وجد "نورا" في غلالة شفافة تلف جسمها وهي تفضحه.. وراعته المفاجأة فتستمر في مكانه "ونورا" تناديه: نادته بصوتها الذي سحره، ونادته بضحكها الذي أذهله، ونادته بذلك البريق الذي رآه في عينها وهي تضمد جراحه.. ولكن "خضرًا" ظل في مكانه..

وعصفت الرغبة بنورا فأرسلت ضحكة عالية لم تكن كضحكاتها السابقة، وإنما كان فيها صراخ الشيطان وألقت بجسدها بين أحضانه، وصرخ الوحش في دماء "خضر" فلم يشعر إلا وهو يتلقف ذلك العود الفائر الدافئ بين ساعديه. وأطبقها في عنف، وكأنما يريد أن يعتصر كل ما في العود.. وصرخت نورا من الألم. فارتد "خضر" في ذهول ليرى على الأرض حلية سقطت من صدر "نورا" بعد أن أدمته..

ووسط ذلك الليل البهيم انشق الهدوء والسلام في طرقات القرية على صيحات خضر المذعورة وفي يده شيء يطبق عليه..

كان كتاب الله في حلية من ذهب.

ويستطرد السادات في حديثه عن القصة، وينتقل في حديثه إلى ذلك النوع من الكُتَّاب الذين يقدمون الدين ومفاهيمه من خلال فن القصة فيقول:

"الذي أدهشني حقًا هو أن يستطيع أحد من الكتاب أن يدخل هذا اللون من القصص إلى الدين لكي يحدث الناس في أسلوب خفيف، وفي حوادث ضيقة، وانفعالات ممتعة، وعن أولئك الأبطال الذين كافحوا في سبيل تثبيت أركان دين من الأديان.. فقد فرغت لتوي من قراءة قصة "الصياد الكبير" للكاتب الأمريكي لويد دوجلاس، ولعل القراء لم ينسوا بعد روايته المشهورة

"الرداء" التي عرضت أخيرًا.. ولويد دوجلاس كان قسيسًا في مستهل حياته، ولم يحترف صنعة الكتابة إلا في سن متقدمة، ولكنه حين بدأ يكتب اتخذ لنفسه طريقًا محددًا.. إن قصصه جميعًا تتلون دائمًا بلون واحد هو الدين.. وقد نحا بها دائمًا أن يبشر قومه بالطريقة التي يستطيعون أن يطبقوا بها الدين على مشكلاتهم وحياتهم في هذه الدنيا من خلال قصص أشهد أنها في تركيبها وسبكها من أروع ما كتب حتى اليوم.. إن قصة "الصياد الكبير" هي الحلقة الأولى لقصة "الرداء"، وهي تحدثنا عن ظهور المسيح عليه السلام، وعن جانب ضخم من تعاليمه.. والصياد الكبير هنا هو سيمون بن جوناس، أو القديس بيتر كما لقبه المسيح....

وما أن فرغت من قراءة هذه القصة حتى وددت لو أن أحدًا من كتابنا كتب بمثل هذا الأسلوب الساحر عن سيرة أبطالنا المسلمين الذين قامت على أكتافهم أروع رسالة أضاءت الأرض بالنور والإيمان.. إن في حياة عمر بن الخطاب قصصًا وأساطير تروى، لا يدانيها أروع ما كتب حتى اليوم عن القوة، والعدل، والحكمة، وإنكار الذات... إن في حياة عمر وحده مادة لا تنضب، تنبه لها الأجانب فكتبوا عنه المؤلفات، ومجدوه، وأهملنا نحن في أن نجعل من حياة هذا الإنسان الفذ مثلا يقتدي به أبناؤنا على مر العصور... هل من يبدأ المحاولة؟".

ولذلك فالروايات الدينية ذات البناء الفني الناضج أقوى أثرًا في نفوس الجمهور من الوعظ المباشر والخطابة الحماسية والإرشاد المجرد، فالإنسان بطبيعته لا يميل إلى الاستماع إلى نصائح الغير لاعتزازه بذاته وبتفكيره، ولرفضه اللاشعوري لفكرة أن الغير يمكن أن يعلم أفضل منه، بحيث يمنحه ذلك السلطة التي تخول له أن يعظه ويوجهه، أما الرواية فتنهج نهجًا مختلفًا تمامًا.

إن الأدب من وجهة نظر السادات هو اكتشاف للنفس واكتشاف للحياة في الوقت نفسه، فالأدب يمده بالطاقة والمضمون لكي تساعده على الاستمرار والاستكشاف.. وفي هذا يقول

السادات في مذكراته التي نشرها في المصور عام ١٩٤٨: "إن حبه للأدب والفن هو الذي ساعده على اكتشاف الأعماق والأبعاد المتعددة التي تتمتع بها حياة القرية البسيطة الساذجة البريئة الوادعة. هناك الإيمان العميق، والسريرة النقية، والرأس المرفوع، والكفاح الدءوب. ومن لا يملك هذه النظرة لا يرى في حياة القرية سوى الكآبة والملل والضيق والضجر والسأم واليأس والرتابة".